غلو التصوف

د . عبدالله عبدالحميد سويد
جامعة الفاتح

التصوف هو التزكية، تزكية النفوس ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾[1]، ويتناول لبّ الدين ، إذ الأعمال الصالحة ترتبط بصلاح القلوب والنيّات ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾[2] .

والدعوة الربانية تقوم على ثلاثة أركان أساسية هي :

1. العلم ويتمحور في دراسة القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، وكل العلوم والمعارف الإنسانية .
2. التزكية وهي التصوف ويترتب عليه التربية الروحية ، وهي المعبّر عنها بالإحسان، والتربية السلوكية والتي نعرفها من خلال السلوك .
3. الدعوة إلى المنهج الرّباني كما حدده القرآن العظيم .[3]

والتزكية أو التصوف يظهر جلياً عند العلماء العاملين ، والمتصوفة المحققين ، الذين سلكوا طريق العبادة والمجاهدة على علم ونور ، وحفظوا أنفسهم من الغرور ونفخ الشيطان . يقول الجنيد : « مذهبنا هذا مقيد بالكتاب والسنة» .

---

(1) الشمس 7 ـ 10.
(2) الحج 37.
(3) ينظر: التصوف الإسلامي ، فرج يوسف أحمد ، دار أسامة للنشر والتوزيع عمان- الأردن ، ط أولى 1998 .

وأثر التصوف في الحياة الإسلامية ظاهر وآثاره الإيجابية مشهود لها ، يقول أحـد الباحثين المدققين المعاصرين « ولا ينكر أحد أثر التصوف في الحياة الإسـلامية ، فكـم أسلم على أيديهم من كافر ، وكم تاب على أيديهم من عاص ، وكم رققوا مـن القلـوب وزكوا من النفوس وهذبوا من الأخلاق ، فلنذكر هذا لهم بجوار مـا نـذكر مـن سـقطات وشطحات » [1] .

فالكتاب والسّنة الصحيحة هما المرجع ، وفيهما العلم اليقين قـال رسـول الله ﷺ « تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما؛ كتاب الله والسنة » رواه الحاكم .

مراحل التصوف الإسلامي

والتصوف الإسلامي مرّ بثلاث مراحل كبرى :

الأولى : وكانت في عـصر الرسـول ﷺ وإلى زمـن الحـسن البـصري (ت **110**هــ) [2] ، واتسمت بتزكية للنفس والزهد .

والثانية : وتبدأ بالقرن الثالث الهجري ، حيث ظهرت طوائف من الزهاد الذين امتجـزت تجاربهم بفلسفات وأفكار ومعتقدات ، غير إسلامية الجذور .

والثالثة : ويمكن تحديدها من القرن الثامن الهجري ، حيث كثـرت الانقـسامات داخـل الطرق نفسها ، وتعددت التسميات . [3]

والتصوف الحقيقي هو اتجاه روحي يتحـدد طبقـاً لمـنهج إسـلامي ، فـلا معنـى للتصوف الذي تتعارض مبادؤه مع الفكر الإسلامي ، ومـا عُلِـمَ مـن الـدين بالـضرورة ، ولا معنى للتصوف الذي يرفض الحياة ويدعو لهجر الكون ، ولا معنى للتـصوف الـذي يحتوي على عقائد تصادم العقيدة ، أو عبادات وألفاظ تؤدي إلى الفتنة .

والتصوف هو الإحسان ، وهو درجة عظيمة تتمثل في أن يعبد المـرء ربّـه ، كأنـه

---

(1) الحياة الربانية والعلم ، د . يوسف القرضاوي ، الناشر: مكتبة وهبة ، الطبعة الأولى .

(2) الإمام الحسن البصري من سادات التابعين مولده لسنتين خلتـا مـن خلافـة عمـر رضـي الله عنـه وتـوفي في العـام 110هـ . كتب رسالة طويلة إلى عمر بن عبدالعزيز ، يصف له فيها الدنيا ويزهّده فيها . ويعتبره الصوفية في رأس سلسلة سند التصوف أخذها عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه . كان فقيهـاً ، واسـع الروايـة ، فـصيح اللـسان ، جلس للدرس والوعظ .

(3) ينظر: لمحات من التصوف د . السائح علي حسين ، ص22 ، منشورات كلية الدعوة الإسلامية ، ط ثانية 1997 ،

يراه ، لذلك كان من خصائصه : [1]

أولاً : الفردية ، وهي ليست أمراً مشاعاً متاحاً لكل الناس ، إذ إن قوام الملكات الروحية هي ملكات في أفراد .

ثانياً : الكتمان ، والمجاهرة تضرّ ، ولذا شاع عن أهل الصوفية المحققين قولهم : « مَنْ باحَ راح » وحجة الإسلام الإمام الغزالي قد سدّ باب المجاهرة بعد مجاهدته وعزلته ، لسنوات عشر ، حين سئل عن ذلك فقال :

فكانَ ما كان مما لَسْتُ أَذْكُرُهُ فَظُنْ خيراً ولا تَسْألْ عن الخَبَرِ

والكتابة عن التصوف الإسلامي تأخذ طرائق متعددة ، ولعل أخطرها تلك التي تهتم بالقضايا التي يرفضها الإسلام ، والتي ظهرت عند الكثيرين ممن ينتسبون إلى هذا الطريق ، وكان نتيجتها فرقاً ضالة كثيرة نبتت ومازالت تنبت إلى يومنا هذا ، تنادي بمعتقدات وأفكار لا علاقة لها بالإسلام ، ولا يقرها الدين ، وتتعارض مع كل تفكير سليم ومن ذلك :

1. العلم اللَّدُنِّي

بعض الصوفية يميزون بين علمين ، علم ظاهري مأخوذ من العلماء العاملين ، وموثّق في الكتب ، وعلم باطني يجيء فجأة دون أخذ من أحد . والعلم اللّدني ـ عندهم ـ هو صفة أضيفت إلى مفهوم الولاية وتعني : « تلقى أسرار التأويل » وهو كشف يقذفه الله في قلب وليّه ، دون اللجوء إلى الدّرس والتحصيل والأخذ عن العلماء الثقاة . من هنا فهم يزهدون في العلم الظاهري المعروف لدى الناس كافة ويقولون بالاستغناء عنه عند الصوفي .

من أقوالهم : « نحن نأخذ علمنا من الحي الذي لا يموت ، وأنتم تأخذونه من حي يموت » . . ومن أقوالهم : « العلم حجاب بين القلب وبين الله عزّ وجل » ومن أقوالهم « إذا رأيت الصوفي يشتغل بـ « أخبرنا » و« حدّثنا » فاغسل يدك منه » ومن أقوالهم « لنا علم الخِرَق ، ولكم علم الورق » . [2]

ولعل رد ابن عجيبة في إيقاظ الهمم على هذا الإدعاء من أحسن ما قيل؛ قال :

---

(1) ينظر: التصوف في الميزان د . مصطفى غلوش ، ص 28 ، دار نهضة مصر القاهرة .

(2) الخرق: جمع خِرْقة وهي القطعة من الثوب الممزّق .

« لا تـصوف إلا بفقـه ، إذ لا تعـرف أحكـام الله تعـالى الظـاهرة إلاّ منـه ، ولا فقـه إلاّ بتصوف ، إذ لا عمل إلاّ بصدق توجّه ، ولا هما إلاّ بالإيمان ، إذ لا يصح واحـد منهمـا بدونه ، فلزم الجمع لتلازمهما في الحكم كـتلازم الأرواح للأجـساد إذ لا وجـود لهـا إلاّ فيها ، كما لا كمال لها إلاّ بها ، ومنه قول مالك رحمه الله « من تـصوف ولم يتفقّـه فقـد تزندق ، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسّق ، ومن جمع بينهما فقد تحقّق » (1)

2. رفع مكانة الشيخ إلى درجة التقديس

رفع بعض مريدي الزوايا والصوفية مكانة الشيخ إلى درجة لا تصدق ، فغـالوا في ذلك وبالغوا ، وانقادوا إليه واعتقدوا فيه تعظيمه وتوقيره ظاهراً وباطناً ، وعدم الاعتراض عليه في شيء فعله ويؤوّل ما أنبهم من أعماله وأقواله إذا كان مخالفاً للشرع ، وقالوا بألاّ يلجأ المريد لغيره ، ولا يحضر مجلس غيره ، ولا يستمع ممن سواه ، ولا يزور صالحاً إلاّ بإذنه ، حتى يتم سقيه مـن مـاء سـر شـيخه ، ولا يجلـس علـى سـجادته ولا يـسبح بسبحته ، ولا يفعل فعلاً من الأمور المهمة إلا بإذنه . (2)

وتصور بعض الطرق الصوفية العلاقـة بـين الـشيخ والمريـد فتقـول : « فـإن وقـع المريد على الشيخ وجب عليه أن يترك عقله وعلمه وديانته ومروءته لعقل الشيخ وعلمـه وديانته ومروءته فبصيرة الشيخ مقدمة ، وخطأه أولى من صواب المريد ، ولا يـرد عليـه ولا يخالفه ، ويتأدب معه بالآداب المنصوص عليها عند القوم» . (3)

إن تقـديس الـشيخ الـذي يـشبه العبـادة والخـضوع التـام لـه في كـل الأمـور هـو أمـر منكـر لا شـك فيـه . لقـد أصـبح الانقيـاد للـشيخ هـدفاً ، وجعـل المريـد مرتبطـاً بالأشخاص لا بالأفكار والمبادئ ، ومن هنا طغت خدمة الشيخ على حقيقة العبادة .

وهذا ما جعل الإمام أحمد بن حنبل يهجر الحارث بن أسد المحاسبي الـصوفي، لاعتقاد الأول أنه لا يجوز أن يكون لدارس الشريعة شيخ يسلِّمه أمره . (4)

---

(1) إيقاظ الهمم في شرح الحكم ، أحمد محمد بن عجيبة الحسني 15/ ، دار الإيمان ، دمشق .

(2) ينظر: حاشية الصاوي على الشرح نفسه 116 ، وتنوير القلوب للكردي ص405 ، عـن: لمحـات مـن التـصوف وتاريخه ، مرجع سابق ، ص188 .

(3) الشيخ الكامل محمد بن عيسى ، أحمد القطعاني ، ص40 ، الناشر: دار الكتاب الليبي .

(4) ينظر: العقل وفهم القرآن د . حسين القوتلي ، دراسة لكتـابي الحـارث المحاسـبي ، ص45 ، المؤسـسة الجامعيـة للدراسات والنشر .

لقد أصبح بعض مشايخ الطرق ـ بهذا التصور ـ يحاكون الرهبان ، وأضفى عليهم العامة من مظاهر التقدير والإجلال ، واللجوء إليهم في الحياة وبعد الموت ما بعد بالحركة الصوفية النقية الصحيحة عن منبعها الإسلامي . (1)

إن مقولة ابن الخطاب ﷺ : « أصابت امرأة وأخطأ عمر » تبقى شاهدة مشهود لها في التاريخ لأنها تصوير دقيق لقولة : « يعرف الرجالُ بالحق ، ولا يُعْرَف الحقُّ بالرجال » .

وصدق الله القائل : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾(2) . أنداداً ؛ أشياء أو أشخاصاً أو اعتبارات وكلّها شرك خفي ، إذا أشركها المرء في قلبه مع حب الله ، فكيف إذا نزع حب الله من قلبه وأفرد هذه الأنداد بالحبّ .

3. النُّور المحمدي الأزلي

محبة رسول الله محمد بن عبدالله ﷺ وتوقيره من الدين ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾(3) ، فهو النبي الخاتم الذي جاء بالحق وصدق به ، وسيرته ﷺ كلها عظة واعتبار ، في أهله ، وفي عشيرته ، وبين قومه ، ومع أنصاره وأعدائه .

ومحمد ﷺ بشر ، يماثل البشر في بشريته ويتميز عنهم باصطفاء الله له بالنبّوة ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾(4).

وقد نبهنا ﷺ عن المبالغة في المدح له لكيلا يتحول المدّح إلى غلو واشتطاط قال : « لا تُطْروني كما أطرت النصارى ابْنَ مريمَ فإنما أنا عبد ، فقولوا : عبدالله ورسوله » . (5)

ولعل النسبة في الإسلام للإسلام نفسه لا لنبيه ، فيقال : « مسلم » ولا يقال : « محمدّي » دلالة أكيدة على ما توخّاه الرسول ﷺ من نصحه للأمة بعدم الإطراء والغلو

(1) ينظر: لمحات من التصوف وتاريخه ، مرجع سابق ، ص72 .
(2) البقرة 165.
(3) الفتح 9.
(4) فصلت 6.
(5) أخرجه البخاري (3445) .

فيه والذي يؤدي إلى تشويه العقيدة وهو ما جعل بعض المتصوفة تقول بفكرة النور المحمدّي أو الحقيقة المحمدية ومؤداها أن محمداً ليس مخلوقاً ككل الناس وإنما هو أزلى الوجود فأول شيء خلقه الله هو «النور المحمدي» ظهر في صورة آدم وكل الأنبياء بعده «السابق للخلق نوره ورحمة للعالمين ظهوره» .

والقول بهذه النظرية يؤدي إلى الاعتقاد بوجود التناسخ في أجساد الأنبياء ويصل الأمر إلى القول بأن محمداً مات جسداً ، وانتقل نوره إلى آخرين ومازال يظهر في صورة الأولياء والصالحين . (1)

يقول أحد الباحثين : «فالنظرية هنا ـ يعني الحقيقة المحمدية ـ تتردد بين غُنُوصّ الثَّنَويّة الفارسية وبخاصة وهي تستخدم فكرة النور ، وبين الأفلاطونية المحدثة وهي تتكلَم عن فكرة الهباء ، وبين غُنُوصّ المسيحية في الكلمة . . . » (2)

إن المسلم الذي يأخذ الإسلام من منابعه الصحيحة يعرف أن أزلية الروح تعني قدمها ، وأن النفس حادثة ولا قديم سوى الله تعالى ، ومن هنا فإن قدم الأرواح وتنقلها من بدن إلى بدن وهو المعبر عنه بالتناسخ أمر لا يقره الدين .

4. وحدة الوجود ـ الحلول ـ الاتحاد ـ الفناء

تتمثل وحدة الوجود في عدم انفصال هذا العالم عن موجده ، فالعالم الموجود والإله الموجِد شيء واحد . وهذه القضية ظهرت عند قدماء الهنود وهي الركيزة للديانتين البرهمية والبوذية . فالإله «براهماً» عند الهنود موجود في كل مكان على سبيل الظرفية ، فهو في كل الوجود .

ووحدة الوجود ترى جميع الموجودات ليست موجودة بالفعل ، هي صور للوجود الحقيقي الواحد وهو وجود الله (3) فوحدة الوجود هي «عدم بجوار

(1) ادّعى البعض في الفرق الإسلامية النبوّة وأوّلوا عبارة "خاتم الأنبياء والمرسلين" ، وإن وصفت هذه الحركات والفرق بأنها خارجة عن الدّين ، إلاّ أنها منتشرة ولها أتباع كثر في العالم اليوم كالقاديانية مثلاً .

(2) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، د . علي سامي النشار ، 162 ، ط سابعة ، دار المعارف . وجاء في المعجم الوسيط (مجمع اللغة العربية) : الغُنُوصّة: نزعة فكرية ترمي إلى مزج الفلسفة بالدين . وتشتمل على طائفة من الآراء المضمون بها على غير أهلها . وتطلق خاصة على جماعة من المفكرين في القرنين الأول والثاني للميلاد . والثَّنَويّة: فرقة تقول بإلهين اثنين : إلهٍ للخير وإلهٍ للشرّ .

(3) يذهب بعض البحاثة المسلمين المحدثين إلى التفريق بين وحدة الوجود ووحدة الموجود ، ويرون أن الباطل هو

وجود» [1].

والحلول معناه امتزاج بين الله والعالم ، فهو «وجود بجوار وجود» . والحلول الهندي عام في كل الكائنات فالإله ـ عندهم ـ حال في البقرة ، والبقرة مازالت هي هي ، أما المتصوفة المسلمون فيقصرونه على الأشخاص فقط .

والاتحاد يعنون به اتحاد الإله مع العالم بحيث يصير الاثنان شيئاً واحداً مع عدم تلاشي الاثنين ، فهو «وجود مع وجود» .

أمّا الفناء فهو سعي الإنسان نحو الإله بالفناء ، وهي حالة عرفت باسم «النرقانا» عند الهنود ، ففي ملّتهم : «من لم يرغب في شيء ولله يرغب ، وتحرر من رقّ الأهواء ، واطمأنت نفسه ، فإنه لا يعاد إلى حواسه ، ويتّحد بالبراهما فيصير هو ، ويصبح الفاني باقياً» [2].

ويترتب على كل ذلك أن أرباب هذه العقائد لابد لهم من الاعتقاد بتناسخ الأرواح وهو «أن تكرر الأكوار والأدوار إلى مالا نهاية ويحدث في كل دور مثلما يحدث في الدور الأول . والثواب والعقاب في هذه الدار لا في دار أخرى لا عمل فيها ، والأعمال التي نحن منها ــ الآن ـ إنما هي أجزية على ما سلفت ، سكنت في الأدوار الماضية» [3].

وخلاصة القول إن الذّات الإلهية تختلط بالإنسان عند أصحاب هذه الأفكار جميعاً سواء أكانت وحدة الوجود أم الحلول أم الاتّحاد أم الفناء ، وكنتيجة حتمية لذلك ظهرت في الأفق ظاهرة الشطح عند بعض أهل الصوفية .

5. الشَّطَح

«الشطح حركة أسرار الواجدين إذا قوي وجدهم ، بعبارات يستغربها سامعها» [4] ففي اللفظ معنى الحركة والفيض ، أو يقال : إنه فلتات لسان تخرج من فم

وحدة الموجود .

(1) ينظر: التصوف في الميزان ، مصدر سابق ، وقد وصف وحدة الوجود بعدم بجوار وجود ، والحلول: بوجود بجوار وجود ، والاتحاد: بوجود مع وجود ، والفناء: بوحدة وجود جزئية .

(2) ينظر: أديان الهنود ، د . أحمد شلبي ، ص66 .

(3) وينسب هذا القول للشهرستاني . ينظر: التصوف في الميزان ص 72 ، مرجع سابق .

(4) ينظر: دائرة المعارف الإسلامية- الترجمة العربية ط: كتاب الشعب -بحث- للدكتور مصطفى عبدالرزاق

المرء في حالة جدب ووجد ويصل فيها إلى حالة الغيبوبة المعبّر عنها بالسُّكر .

وقد ظهر الشطح في صورته الأولى عند إبراهيم بن أدهم ورابعة العدوية ، واتخـذ صورة واضحة عند البسطامي والحلاج . (1)

ينسب للبسطامي قولـه « أنـا الحـق » وينـسب للحـلاّج قولـه « مـا في الجبـة إلاّ الله » . فلتات لسان في حال الغيبوبة المعـبر عنهـا بالـسُكْر . قـال ابـن تيميـة « وكلمـات السّكران تُطوى ولا تُرْوى ولا تَؤَدَّى » ، وقال عنها الجيلاني « في حالة الصحو فهو مـن الشيطان ، وأما الغيبة فلا يقام عليها حُكْم » .

من أقوال الحلاّج : « ليس يستتر عني لحظة فاستريح ، حتى استهلكت ناسـوتيتي في لاهوتيته ، وتلاشى جسمي في أنوار ذاته ، فلا عين لي ولا أثر » (2) .

ويقـول :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحـن روحـــانَ حَلَلْنَا بَدَنَا
فـــإذا أبصرتنـــا أبصرتَـه وإنْ أبصـــــرتَهُ أبصـرتَنَا

ويجد في عيسى عليه السلام المثال الكامل الذي وصل إلى مقام القربى فحـلّ فيـه روح الله . عيسى خليفة الله الذي كان شاهداً على وجوده ، والمجلّى الذي تجلّى الله فيه ، وفيـه كان وجوده (3) .

يقول الـشيخ أحمـد الرفـاعي في معـرض ردّه لهـذه الـشطحات : « ينقلـون عـن الحلاج أنه قال : أنا الحق! أخطأ بوهمه . لو كان على الحقّ ما قال : أنا الحـقّ . . . مـن

. 345 / 93

(1) هو الحسين بن منصور ، كان شديد الزهد ، كثير الصوم ، طويل العبادة يقال إنه كانـت لـه خـوارق كـثيرة . صـوره المستشرقون بأنه ثائر سياسي قتلته السلطة دفاعاً عن وجودها ، في العام 299هـ . أظهر للناس شـطحاته . وكـان الحكم عليه بضربه ألف سوط ثم قطع أطرافه واحداً بعد واحد ، ثم قطع رأسه ، وإحراقه ، ولا عهد للتاريخ بمثلـها في حالات الردّة عن الدين ، أما في الصراع السياسي فذلك أمر معروف: ينظر: لمحات مـن التـصوف وتاريخـه ، مرجع سابق ، ص302 .

(2) الطواسين للحلاّج ص33 ، نشر مكتبة الجندي .

(3) هذا ما قاله المستشرق نيكلسون معجباً بالحلاج ، ينظـر: في التـصوف الإسـلامي وتاريخـه ، ترجمـة د . أبـوالعلاء عفيف ص134 .

أراد قرباً ولم يزدد خوفاً فهو ممكور ... إياكم والقول بهذه الأقاويل» [1] .

ومن شحطات أبي يزيد البسطامي : « خضت بحراً وقف الأنبياء بساحله» ولتبرئة البسطامي من اتهام قد يوجه إليه لقوله تلك العبارة قال الشيخ عبدالقادر الجيلاني : إن صحّ قوله عنه فمعناه : « وقف الأنبياء بساحله لِيُعَبِّروا فيه من رأوا فيه أهلية العبور ، ويمنعوا من ليس فيه أهلية له ، وليدركوا من أشرف على الغرق ، كما يتأخر الأفضل ليشفع في دخول الجنّة ويدخل المفضول» [2] .

ويلتمس الشيخ زروق للبسطامي المعاذير إذ يفسر شطحته تلك بقوله : « وهذا منه اعتراف بالنقص والتقصير ، لأن خوض البحر من الجهل بسهوله ، والوقوف بساحله من المعرفة بقدره ، فالخائض بنفسه للهلكة ، والواقف قائم مع النجاة ويمكنه من استخلاص حليته وطعامه مالا يمكن الخائض [3] .

وقد تناقلت الناس قصصاً مثيرة عن بعض أهل الصوفية الذين كانت لهم شطحات حال حياتهم وبعد مماتهم ، فمن ذلك أن أبا العلاء بن أبي الفضل الشاورأبادي قال : » حضرت يوماً من الأيام مشهد الشيخ سلطان العارفين أبي يزيد قدس الله روحه العزيز فإذا بعصفور يريد أن يصطاد نملة ، وكان يسير مسرعاً ليدركها حتى قرب من القبر (قبر البسطامي) فلما بلغ قريباً من القبر انصرف عنها وتركها . علمت أنه تركها حرمة وحشمة لذلك الشيخ فتعجبت منه [4] .

ومن تلاميذ البسطامي الذي كان يحفظ عباراته « الراعي» وقد سأل شيخه أن يأذن له في نشر كلامه بين النّاس فقال له : « لا تذكر كلامنا هذا مع كل أحد . تكلّمه مع الجمال في الصحراء» . قالوا : فإذا خرج الرّاعي وهاجه وغُلِبَ عليه يذكره مع الجمال فتجيئوه الجمال فيصغين إليه .

وتمتد مسيرة الشطح عبر الزمان والمكان ويظهر بأرض السودان رجل يدّعي أنه

---

(1) البرهان المؤيد ، أحمد الرفاعي الحسيني ، ص36 ، تحقيق عبدالغني نكومي ، دار الكتاب النفيس ، بيروت 1408هـ .

(2) ينظر: مجموع مخطوط بالفاتيكان – عربي- برقم 1242 ورقة 23ب – 34م .

(3) ينظر: شرح حكم ابن عطاء الله ، تحقيق د . عبدالحليم محمد ومحمود بن الشريف ، ط ، مكتبة النجاح ، طرابلس .

(4) ينظر: النور من كلمات أبي طيفور ، عن: شطحات الصوفية ، د . عبدالرحمن بدوي:186 .

« الله » . يقول : « أطاع الله حتى أطاعه الله ، معاوضة لفعله ، فيكون حياً حياة الله ، وقادراً قدرة الله ، ومريداً إرادة الله ، وعالماً علم الله ، ويكون الله » [1] ويؤكد الشيخ الفقيه زروق في القاعدة السادسة والعشرين أن حكم الفقه عام في العموم لأن مقصده إقامة رسم الدين ، ورفع مناره ، وإظهار كلمته . وحكم التصوف خاص في الخصوص ، لأنه معاملة بين العبد وربّه من غير زائد على ذلك . فمن ثَمَّ صحَّ إنكار الفقيه على الصوفي ، ولا يصح إنكار الصوفي على الفقيه ، ولزم الرجوع من التصوف إلى الفقه والاكتفاء به دونه ، ولم يكف التصوف عن الفقه ، بل لا يصح دونه ، ولا يجوز الرجوع منه إليه إلاّ به . وإن كان أعلى منه مرتبة فهو أسلم وأعم مصلحة . ولذا قيل : « كن فقيهاً صوفياً ، ولا تكن صوفياً فقيهاً » [2] .

ويؤكد في القاعدة التاسعة والتسعين بعد المائة من قواعد التّصوف أن النظر لصرف الحقيقة مخل بوجه الطريقة ، وعدم الأخذ بهذه القاعدة هو ما أوقع الكثيرين في الطامات وتكلموا بالشطحات حتى كفر من كفر وفسق من فسق بواضح الشريعة ولسان العلم . ومن هنا لزم التحفظ في القبول بأن لا يؤخذ إلاّ عن الكتاب والسّنة ، وفي الإلقاء لا يُلقى إلاّ بالوجه الشائع فيهما من غير منازع ، فإذا شطح من شطح فلا عتب على منْكِر استند لأصل صحيح [3] . وفي القاعدة الأولى بعد المائتين من قواعد التصوف يقول : « كثر المدعون في هذا الطريق لغربته ، وبعُدت الأفهام عنه لدقّته ، وكثر الإنكار على أهله لنظافته ، وحذر النّاصحون من سلوكه لكثرة الغلط فيه . وصنف الإئمة في الرّد على أهله ، لما أحدث أهل الضلال فيه ، وما انتسبوا منه إليه » [4] .

6. الولـي

في اللغة : والاه ، أي : دنا منه وقَرُب ، والْوَلِيُ : الاسم منه ، وسمي الولي ولياً من موالاته للطاعات وقربه منها ، أي متابعته لها على الدّوام .

وأصل الولاية المحبة والقرب كما أن أصل العداوة البغض والبُعد . وأولياء الله

---

(1) هو محمود محمد طه ، طبق عليه حدّ الرّدة في السودان (1983) .

(2) قواعد التصوف ، أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد زروق ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاعدة (26) ، صححه محمد زهري النجار .

(3) ينظر: القاعدة 199 من كتاب قواعد التصوف ، مرجع سابق .

(4) القاعدة 201 من كتاب قواعد التصوف ، مرجع سابق .

تعالى هم أحباؤه وخاصته المقربون منه . والولي في وصف إعلام الفكر الإسلامي المستنير هو العالم بالله تعالى ، المواظب على طاعته ، المخلص في عبادته ، عرّفهم القرآن بأنهم : الذين آمنوا وكانوا يتقون . قال تعالى : ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾(1) .

فالإيمان والتقوى هما الوصفان الرئيسان للولي ، وهذا يجعل كثيراً من الناس في طبقة الأولياء وهم الذين اتصفوا قولاً وعملاً بالصفتين المذكورتين . وقدر الأولياء عند الله عظيم ، ومحبتهم فرض ، والتأسي والاقتداء بسيرتهم الطيبة واجب دون مغالاة ودون خروج عن هدي المصطفى ﷺ (2) .

أ. الغلو في الأولياء

غالى بعض الناس في الأولياء ، وفي الخوف منهم ، فنسبوا إليهم أقوالاً وأفعالاً وتأثيرات كبيرة ، وقالوا بأنهم يخرجون من قبورهم إن كانوا أمواتاً ، ولجأوا إليهم بأقوال فيها المبالغة في التعظيم ، والتسليم الكامل مما يتنافى مع الإيمان بالله ورسوله الخاتم محمد بن عبدالله ﷺ .

والوَلاَية في عرف الناس اليوم عبّر عنها الآلوسي بقوله : « غالب الجهلة العوام على أن الولي هو المجنون ويعبرون عنه ــ بالمجذوب » (3) . ويقول الشيخ زروق في عدة المريد : « منها طائفة ظهرت بالجذب وتصرف المجانين ، بحيث إنها "تمجذبت" حتى صار الجذب لها سجيّة بحكم العادة فلم تقدر على الاستقامة في التصرف وثقل عليها الرجوع إلى المألوفات ودعاها لذلك ما تراه من أحوال المجاذيب وما يجري لهم من الأحوال واستمالة الخلق لميلهم لهذا النوع كثيراً لا سيما الجهلة من أبناء الدنيا ، فإنهم يؤثرون هذا النوع على غيره ويحبونه ويقومون به . وغالب من هذا شأنه أن يجانب العلم وأهله ، ويعادي العمل ومن يلتزمه . ويقولون هؤلاء هم الرجال الذين خرجوا عن الدنيا فلم تبق فيهم بقية ، وهذه مصيبة وجهل » . (4) .

---

(1) يونس 62 ـ 63)

(2) ينظر: الغلو في الدين ، غلو التطرف وغلو التصوف ، د . الصادق عبدالرحمن الغرياني ، ص47 ، الطبعة الأولى2000 .

(3) تفسير روح المعاني للألوسي ، 9 / 202 .

(4) عدة المريد الصادق ، الشيخ زروق ، ص48 ، مرجع سابق .

ب. كرامة الولي

الكرامة والمعجزة لفظان في التراث الديني بينهما اتفاق واختلاف ، فالاتفاق أنهما جميعاً « أمر خارق للعادة» والاختلاف بينهما في أن المعجزة لنبي والكرامة لولي صالح .

وقد قيل: إن الحكمة من وقوع الكرامة تقوية إيمان الولي ولتكون حجّة في الدين ، وهي جائزة الوقوع ، وقد ثبت لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما كرامات ، منها نزول البركة في طعام ضيوف آل أبي بكر ، وكرامة مخاطبة عمر لسارية في نداء « يا سارية : الجبل ، الجبل» وغير ذلك .

وفي عصور متأخرة تدنى مفهوم الكرامة وتوسّع فيها فقد أصبحت تفوق المعجزات أحياناً . قيل إن أبا راوي الفحل كان يبرئ الأكمه والأبرص ، وكان لا يخفى عليه أمر ، وإذا قُصِدَ لسؤال يجيب عنه قبل أن يتكلم صاحبه [1] . وكان له طب غريب يداوي به أهل الأسقام . وكان يتفل في الماء فيعود لبناً وفي الخمر فيصير عسلاً ويحادث الذئاب ويرقد معهم ويطير في الهواء ويهيم .

وينسب لبعض الأولياء أنهم يُرون في وقت واحد في عدة مواضع ، وتكلموا في المهد ، ومكالمتهم للطيور واجتماعهم مع ملك الموت ، وإخبارهم بالحوادث التي ستقع مستقبلاً ، وكذا معرفتهم بمن مات في ساعته تلك من دون خبر بشري ، وكلّ ذلك نجده مثبوتاً في الأخبار وقصائد تنسب إليهم [2] . وهذا صوفي من العلماء تعمق في الفلسفة والمنطق والأصول ودرس التصوف وهو الغزالي لم يعرف عنه نسبة كرامة ولا ادعاؤها لنفسه ، ولم يعرف عنه جذب ولا شطح [3] .

---

(1) ينظر: تنقيح روضة الأزهار ، أ . عبدالكريم البرموني ص223 طبعة مكتبة زهران ، والشيخ أبوراوي من القلعة الصغرى وتوفي بسوسة 931هـ .

(2) هذه الأقاويل موجودة في كتاب تنقيح روضة الأزهار للبرموني وغيره من الكتب المنسوبة إلى الشيخ عبد السلام الأسمر(ت 880 هـ بزليتن) . ولا يستطيع باحث مدقّق أن يسلم بصحة هذه للأسمر ، إذ فيها مخالفة صريحة لظاهر الشرع ، ومبالغات لا يقبلها العقل . ينظر: "باب: في ذكر شيء من كراماته وما يتعلق بذلك" روضة الأزهار للبرموني .

(3) هو الإمام أبو حامد الغزالي (450-505هـ) ولد بطوس المدينة التي دمرّها المغول سنة 617هـ وبنيت على انقاضها "مشهد" الحالية في القرن الثامن الهجري ، وكتابه "الأحياء" معروف ومشهور ، والغزالي لم يخالف الصوفية في وقوع الكرامة .

إن شخصية الولي في الإسلام هي شخصية إيجابية عملية تدور مع الحياة وَتَرسّم خطى الدين وقد قيل : إن صاحبها يتسامى فوق الالتزام بالمأمورات والمنهيات إلى الالتزام بالمندوبات والمحبوبات . إن الموقف من الكرامة هو نور العقل ونور القلب ، نور العلم ونور الإيمان .

ج . طبقات الأولياء

وبتأثير من أفكار دخيلة باعد بعض الصوفية بين الشريعة والحقيقة ، ورأوا أن الأولى من حظ العامّة ، والأخرى للخاصة وهم أهل التصوف . وترتّب على ذلك أن قالوا إن العالَم يدوم بقاؤه بفضل طبقة من الأولياء المستورين عنا ، وهم محدودو العدد فإذا قبض منهم واحد خلفه آخر . ويذكرون أن رجال الغيب هم ثلاثمائة من النقباء ، وأربعون من الأبدال وسبعة أمناء وأربعة عمد ثم القطب وهو الغوث ، وهو رأس العارفين . وقد رأى الكثير من المحققين أنَّ ما ورد من أحاديث في هذه التسميات لا سند له من الصحة [1] .

د. الولي والنّبي

لقد اشتط بعض الناس فوضعوا الولي في مرتبة النبي ، وغالى بعضهم أكثر من ذلك فرفعوه فوق مرتبة النبي . يرون أنه إذا كانت النبوة قد انقطعت والرسالة قد ختمت فمن حيث هي نبوّة تشريع ، وأما النبوة بالمعنى العام ، وهي نبوة الأولياء الذين يتلقون فيها عن الله مباشرة فإنها لم تنقطع [2] وهذا مظهر أفضليته ، وكذلك لأن الولي أولاه الله الحكم على كل شيء من ناطق وجامد ، ولأن النبي ــ عندهم ـ يأتيه الوحي بوساطة جبريل عليه السّلام ، أما الولي فيجيئه مباشرة عن طريق القذف في القلب .

ومن ثَمَّ قالوا بفكرة « خاتم الأولياء» ، وهو المصدر الذي يستقى منه الأولياء والأنبياء ، وخاتم الأولياء فكرة باطنية المقصود منها الموازاة بين الشرع الظاهر والشرع الباطن عندهم [3] .

---

(1) ورد لفظ "الأبدال" في المسند عن حديث علي بن أبي طالب وقد روي أنهم أربعون رجلاً بالشام ، ويعلق د . السائح بقوله: وكيف يكون أفضل الناس في معسكر معاوية دون معسكر علي . ينظر: لمحات من التصوف وتاريخه: 194 ، مرجع سابق .

(2) ينظر: فصوص الحكم ، ص134 ، ص135 ، والتعليقات ص225 .

(3) ينظر: قطر الولي على حديث الوليّ أو ولاية الله والطريق إليها ، للإمام الشوكاني تحقيق: د . إبراهيم إبراهيم هلال ،

و. الولي وسقوط التكاليف

من الطوائف الصوفية الخارجة عن القصد تلك التي ترى الإباحة للولي في كل ما يتناوله أو يأتيه من أمور ، حتى ولو كان على محـرّم وقـالوا : « مـن بلـغ القـصوى مـن الولاية سقطت عنه الشرائع » .

7. الإصلاح والعلاج

تلك جملة من المظاهر والقضايا لغلـو التـصوّف أوضـحناها وبينّـا الخطـأ فيهـا ومجانبة الصواب ، والإصلاح فيها يكون بإصلاح النفوس ، إصلاح تربية وإصـلاح تفقـه وتعلم [1] :

1. الاعتناء بدراسة علم الفقه .
2. التثبت فيمن يؤخذ عنه العلم .
3. الأخذ بالأحوط عند اختلاف العلماء .
4. الرجوع إلى الحق .

فقد جاء عن أبي الدرداء ﷺ : « من فِقه الرجل ممشاه ومدخله ومخرجه مع أهـل العلم » [2] وقال مالك بن أنس عن بداية طلبه للعلم : « عَمَّمَتني أمـيِّ ثـم قالـت : اذهـب إلى ربيعة فتعلَّم من أدبه قبل علمه » [3] . وكان عمر ﷺ وقّافاً عند كتاب الله إذا رُدَّ إليه ، وكان عزالدين بن عبدالسلام إذا تناقل الناس عنه فتوى تبيّن له خطؤها أمر من ينادي في الأسواق بأن من كان أفتاه ابن عبدالـسلام بكـذا فقـد تـرك فتـواه بـذلك ، والـصواب كـذا وكذا . وعدّ العلماء الأخيار هذا في مناقبه .

والتصوف الحقيقي لا يفرق بـين الحقيقـة والـشريعة ، وأصـول الطريقـة سـبعة : التمسك بالكتاب ، والإقتداء بالسنة ، وأكل الحلال ، وكـفّ الأذى ، وتجنـب المعاصـي ، ولزوم التوبة ، وأداء الحقوق .

دار الكتب الحديثة ، القاهرة .

(1) ينظر: الغلو في الدين ، غلو التطرف وغلو التصوف ص209-233 ، مرجع سابق .

(2) جامع بيان العلم 1/ 127.

(3) الديباج المذهب ص20 .

لقد كان كبار الزهاد من الطبقة الأولى ملتزمون بأوامر الشرع ونواهيه ، يقول الشيخ زروق : « نظر الصوفي للمعاملات أخص من نظر الفقيه ، إذ الفقيه يعتبر ما يسقط به الحرج ، والصوفي ينظر ما يحصل به الكمال » [1] فلا معنى للتصوف الذي تتعارض مبادئ معتقده مع مبادئ الإسلام ، ولا معنى للتصوف الذي يرفض الحياة ويدعو للاعتزال والتقوقع وهجر الحياة ، ولا معنى للصوفي الذي يتلفظ بعبارات وجمل تصادم العقيدة أو تؤدي إلى الفتنة بين الناس . والصوفي شخصية إيجابية فاعلة مؤثرة في المجتمع ، ذو إمكانات كبيرة في الإصلاح والتقويم ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

إن خطورة بعض أدعياء التصوّف تكمن في غوايتهم غيرهم عن طريق ابتداع فرق ضالة مضلة ، فاتنة مفتونة لا تفيد سوى أعداء الإسلام الذين يريدون لأهله الضعف والخضوع والاستكانة [2] .

إن زوايا الطرق الصوفية الإسلامية في كل أنحاء الدنيا مطالبة بأن تنفض عن نفسها التراب ، وأن تؤدي رسالتها الخالدة الصحيحة قولاً وعملاً اقتداء بكتاب الله وبسنة نبيّه ﷺ . فواجباتها كثيرة ؛ في التعليم والتعلم ، في التربية والإصلاح ، في الدعوة والجهاد ، أما إذا نام أصحابها ، وتقاعسوا عن تلك المهام الجليلة وبقوا مقيدي الأيدي والأرجل ، فإنهم بذلك يعادون الدّين ، وينبذون الإسلام ، ويبتعدون عن هدى خاتم الأنام .

(1) قواعد التصوف ، مرجع سابق ، القاعدة الخامسة والخمسون .

(2) نظرات في الدين والحياة والأدب ، الجزء الأول: في الدين ، د . مهدي امبيرش ، ص128 مؤسسة ذي قار ، ط أولى 1992 .